

صيد الخاطر

167 - - فصل : فصل عزلة العالم .

ما أعرف للعالم قط لذة و لا عزا و لا شرفا و لا راحة و لا سلامة أفضل من العزلة فإنه ينال بها سلامة بدنه و دينه و جاهه عند الله و عند الخلق لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم و لا يعظم عندهم قد المخالط لهم و لهذا عظم قدر الخلفاء لإحتجابهم .
و إذا رأى العوام أحد العلماء مترخفا في أمر مباح هان عندهم فالواجب عليه صيانته علمه و إقامة قدر العلم عندهم .

فقد قال بعض السلف : كنا نمزح و نضحك فإذا صرنا يقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك .
و قال سفيان الثوري : تعلموا هذا العلم و اكظموا عليه و لا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب .
فمراعاة الناس لا ينبغي أن تنكر .
و قد قال صلى الله عليه و سلم لعائشة : [لو لا حدثنا قومك في الكفر لنقضت الكعبة و جعلت لها بابين] .

و قال أحمد بن حنبل في الركعتين قبل المغرب : [رأيت الناس يكرهونهما فتركتهما] .
و لا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء إنما هذه صيانة للعلم .
و بيان هذا أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس أو في يده كسرة يأكلها قل عندهم و إن كان مباحا فيصير بمثابة تخليط الطبيب الأمر بالحمية .
فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوام حفظا لهم و متى أراد مباحا فليستتر به عنهم .
و هذا القدر الذي لاحظته أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب Bهما قد قدم الشام راكبا على حمار و رجلاه من جانب فقال : [يا أمير المؤمنين يتلصقك عظماء الناس فما أحسن ما لاحظ] .

إلا أن عمر B أراد تأديب أبي عبيدة بحفظ الأصل فقال : [إن الله عزكم بالإسلام فمهما طلبتم العزة في غيره أذلكم] .

و المعنى ينبغي أن يكون طلبكم العز بالدين لا بصور الأفعال و إن كانت الصور تلاحظ .
فإن الإنسان يخلو في بيته عريانا فإذا خرج إلى الناس لبس ثوبين و عمامة و رداء .
و مثل هذا لا يكون تصنعا و لا ينسب إلى كبر .
و قد كان مالك بن أنس يغتسل و يتطيب و يقعد للحديث و لا تلتفت يا هذا إلى ما ترى من بذل العلماء على أبواب السلاطين فإنه العزلة أصون للعالم و العلم و ما يخسره العلماء في ذلك أضعاف ما يربحونه .

و قد كان سيد الفقهاء سعيد بن المسيب لا يغشى الولاية و عن قول هذا سكتوا عنه و هذا فعل الحازم .

فإن أردت اللذة و الراحة فعليك أيها العالم بقعر بيتك و كن معتزلا عن أهلك يطب لك عيشك و إجعل للقاء الأهل وقتا فإذا عرفوه تصنعوا للقاء فكانت المعاشرة بذلك أجود .

و ليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه وتحادث سطور كتبك و تجري في حلبات فكرك . و إحيرس من لقاء الخلق و خصوصا العوام .

و اجتهد في كسب يعفك عن الطمع فهذه نهاية لذة العالم في الدنيا .

و قد قيل لا بن المبارك : ما لك لا تجالسنا ؟ فقال : أنا أذهب فأجالس الصحابة و التابعين و أشار بذلك إلى أنه ينظر في كتبه .

و متى رزق العالم الغنى عن الناس و الخلوة فإن كان له فهم يجلب التصانيف فقد تكاملت لذة .

و إن رزق فهما يرتقي إلى معاملة الحق و مناجاته فقد تعجل دخول الجنة قبل الممات .

نسأل الله د همة عالية تسمو إلى الكمال و توفيقا لصالح الأعمال فالسكون طريق الحق

أفراد